# فنّ الاختيار في الأدب العربيّ الكلاسيكيّ

الدكتور بلال الأرفه لي(*)

## أوّلًا: «الاختيار» و«الأدب»

حظيت كتبُ الاختيار الأدبيّ برواج ملحوظ في تاريخ الأدب العربيّ لدرجةٍ قلّما وصلت إليها في الآداب العالميّة الأخرى. إلّا أنّ المصنّفين بالعربيّة في العصور الكلاسيكيّة لم يستعملوا مصطلحًا واحدًا للدّلالة على هذه الأعمال، بل عبّروا عنها بمصطلحات مختلفة مثل «المجموع»، و«الاختيار»، و«الدّيوان»، و«الحماسة»، أو بمصطلحاتٍ أخرى مشتقّةٍ من جذور هذه الكلمات. وكانت عمليّة اختيار النّصوص الأدبيّة وجمعها أمرًا شائعًا بين الأدباء، بل كانت نشاطًا رئيسًا مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بمفهوم «الأدب» وممارسته. و«الأدب» مصطلح يصعب تعريفه بشكلٍ محدّد، وهو تحدٍّ حاول التّصدّي له عددٌ من الباحثين المعاصرين. وفي الواقع، إنّ كلَّ محاولة حديثة لتحديد مصطلح «الأدب» قد أدّت إلى استبعاد عملٍ من الأعمال الكلاسيكيّة كان الأدباء القدماء يعدّونه أدبًا(١). وعلى الرّغم من هذا

(*) أستاذ الأدب العربيّ والدّراسات الإسلاميّة في الجامعة الأميركيّة في بيروت.

(١) يذكر فولفهارت هاينريشس أنّ كلمة «أدب»، إبّان القرن الرابع الهجريّ/العاشر الميلاديّ، كانت تحمل ثلاثة معانٍ: أوّلًا، السّلوك الحسَن واللّائق، وثانيًا، النوع الأدبيّ المعبَّر عنه «بالتّراث الأدبيّ» في الدّراسات الحديثة، والذي يشملُ عادةً تصانيفَ تضمّ أقوالًا يُستَشهَد بها، وثالثًا، مجموع المعرفة الأدبيّة واللّغويّة التي تتضمّنها العلوم الأدبيّة. أنظر:
W. Heinrichs, «The Classification of the Sciences and the Consolidation of Philology in Classical Islam», in *Centres of Learning: Learning and Location in Pre-Modern Europe and the Near East*, ed. J. W. Drijvers and A. A. MacDonald,
= Leiden; New York: E.J. Brill, 1995, pp. 119-120.

الاختلاف تتّفقُ كلُّ التّعريفات المقترَحة على أنّ التنشئتَين الأخلاقيّة والاجتماعيّة، والتربية الفكريّة، والمتعة، هي من مزايا الأدب الأساسيّة.

= وقد عالجت دراساتٌ عديدة مفهوم الأدب وتعريفاته. فعلى سبيل المثال، أكّد جوستاف فون غرونباوم أنّ «الأدب» شكل ومقاربة وأسلوب. أنظر:

G. Grunebaum, *Medieval Islam: A Study in Cultural Orientation*, Chicago: University of Chicago Press, p. 255.

أمّا شارل بِلّا فقد لفت النّظر إلى غرض الأدب الوظيفيّ بصفته منهاجًا أخلاقيًّا واجتماعيًّا وفكريًّا. أنظر:

Ch. Pellat, «Variations sur le thème de l'adab,» *Correspondance d'Orient: Etudes* 5-6 (1964), pp. 19-37.

ويقترحُ سيغِر أ. بونباكِر تعريفًا أشدّ تحديدًا في تاريخ كمبردج للأدب العربيّ، فيرى أنّ الأدب «عمل بحثيّ فنّيّ يكتبُه رجلٌ مثقّف بشكلٍ منهجيّ». أنظر:

S. A. Bonebakker, «*Adab* and the Concept of Belles-Lettres», in *The Cambridge History of Arabic Literature: Abbasid Belles-Lettres*, ed. Julia Ashtiany et al., Cambridge: Cambridge University Press, 1990, pp. 16-30.

وللمزيد من المعلومات عن مصطلح «الأدب» أنظر:

H. Fahndrich, «Der Begriff 'Adab' und sein literarischer Niederschlag», in *Orientalisches Mittelalter*, ed. Wolfhart Heinrichs, Wiesbaden: AULA-Verlag, 1990, pp. 326-345; Hilary Kilpatrick, «adab», in *Encyclopedia of Arabic Literature*, eds. Julie Scott Meisami and Paul Starkey, New York; London: Routledge, 1998, 1: 56; eadem. «Anthologies, Medieval», in *Encyclopedia of Arabic Literature*, pp. 94-96, eadem, «A Genre in Classical Arabic: The *Adab* Encyclopedia», in *Union Européenne des Arabisants et Islamisants*, 10th Congress, Edinburgh, September 1980, Proceedings, ed. Robert Hillenbrand, Edinburgh, 1982, pp. 34-42; J. Sadan, «Hārūn al-Rashīd and the Brewer: Preliminary Remarks on the *Adab* of the Elite Versus *Ḥikāyāt*», in *Studies in Canonical and Popular Arabic Literature*, eds. Shimon Ballas and Reuven Snir, Toronto: York Press, 1998, pp. 1-22; Bo Holmberg, «*Adab* and Arabic Literature», in *Literary History: Towards a Global Perspective*, Berlin, New York: W. de Gruyter, 2006, pp. 180-205; Shawkat Toorawa, «Defining Adab by (Re)defining the Adīb», in *On Fiction and Adab in Medieval Arabic Literature*, ed. Philip F. Kennedy, Wiesbaden: Harrassowitz Verlag, 2005, pp. 287-304; and Peter Heath, «Al-Jāḥiẓ, *Adab*, and the Art of the Essay», in *Al-Jāḥiẓ: A Muslim Humanist for our time*, eds. A. Heinemann et al., Beiruter Texte und Studien 119, Würzburg: Ergon-Verlag, 2009, pp. 133-172.

وهذا ما دفع هيلاري كيلباتريك[٢] إلى اعتبار الأدب مقارَبةً للكتابة أكثر منه نوعًا أدبيًّا محدَّد المعالم.

وفي الغالب لم يشعر الكتّاب الكلاسيكيّون بشكلٍ عامّ بأنّهم مُقيَّدون باتّباع قواعدَ محدّدة في أعمالهم، بل كان كلٌّ منهم يستجيب لحاجاته وتطلّعاته الخاصّة، موسِّعًا بالتّالي أشكالَ الكتابة المُتاحة له وأنواعها. ولقد أظهرت الدّراساتُ الحديثة أنّ «الأدب» يشكّلُ نوعًا خاصًّا من أنواع التّربية، فهو منهاجٌ أخلاقيٌّ وفكريّ موجَّهٌ إلى طبقة اجتماعيّة حضريّة ويعكسُ حاجاتها وتطلُّعاتها[٣]. وركّز فولفهارت هاينريشس على هذا الجانب الأخير من الأدب عند مناقشة مفهوم «المحاضرة» – والمقصود به القدرة على اقتباس النّصوص الأدبيّة واستعمالها في الكلام. إذ لاحظ هاينريشس أنّ مضمون الأدب لا يعتمد على ميزته الجماليّة فحسب، بل يتعدّاه إلى دور النّصّ

---

(٢) أنظر: H. Kilpatrick, «Adab», *Encyclopedia of Arabic Literature*, p. 56.

(٣) أنظر: F. Gabrieli, «Adab», *EI2* I: 175-176; Tarif Khalidi, *Arabic Historical Thought in the Classical Period*, Cambridge: Cambridge University Press, 1996, p. 89; Marshall Hodgson, *The Venture of Islam, The Classical Age of Islam*, Chicago University Press, 1974, pp. 451-453.

لمزيدٍ من المعلومات عن أهمّيّة الأدب التّاريخيّة والاجتماعيّة والأدبيّة، أنظر:
H. Kilpatrick, «A Genre in Classical Arabic: the *Adab* Encyclopedia», pp. 34-42; Franz Rosenthal, «Fiction and Reality: Sources for the Role of Sex in Medieval Muslim Society», in *Society and the Sexes in Medieval Islam*, ed. Afaf Lutfi al-Sayyid-Marsot, Malibu: Undena Publications, 1979, pp.2-22; Roberto Marín Guzman, «La litteratura arabe como fuente para la historia social: el caso del Kitab al-Bukhala' de el-Jāḥiẓ», *Estudios de Asia y Africa* 28 (1993), pp. 32-83; Abdallah Cheikh-Moussa, «L'historien et la littérature arabe médiévale», *Arabica* 43 (1996), pp. 152-188; Nadia Maria El Cheikh, «Women's History: A study of al-Tanūkhī», in *Writing the Feminine: Women in Arab Sources*, eds. Randi Deguilhem and Manuela Marín, London; New York: I. B. Tauris & Company, 2002, pp. 129-152; eadem, «In Search for the Ideal Spouse», *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 45 (2002), pp. 179-196; Jean-Claude Vadet, «Les grands thèmes de l'adab dans le Rabī' d'al-Zamakhsharī», *Revue des études islamiques* 58 (1990), pp. 189-205.

الأدبيّ في الخطاب الاجتماعيّ[٤]. أمّا يوسف سَدان فناقَشَ مفهومَين مُفيدَين بهذا الشّأن: «الأدب الشّفهيّ» و«الأدب الكتابيّ»، وشدّد على علاقتهما المتبادَلة. فـ«الأدب الشّفهيّ» هو حصيلة «محاضرات الأدباء» - والمقصود بها هنا المجالس الأدبيّة - المدوَّنة حينها في مُصنَّفات «الأدب الكتابيّ» لتُستعمَل من ثَمّ في المجالِس الأدبيّة[٥]. وهكذا، يستمرّ الأدب في الانتشار، وفي الدَّوَران، وفي جمع موادّ جديدة على الدّوام. وفي نظر سامر عليّ يدلّ الأدب، من جهة، على «كيانٍ مؤلّف من معرفة أدبيّة مُتنَوِّعة... على الأديبِ الناشئ أن يُتقِنَها - ويقترب الأدبُ بذلك من المفهوم اليونانيّ المرتبط بالتّربية Paideia»، ومن جهةٍ ثانية، «يُشيرُ إلى مجموعة الأخلاق والعادات الذّوقيّة المرتبطة بالمجالس والقصور والتي تتشكّل في هذه المجالس والقصور وتبرز فيها»[٦]. ويشدّد عليّ كذلك على مدى تأثير كلٍّ من المؤانَسة والظَّرْف الملازمين للمجالسات في مضمون الأدب وتشكيله[٧].

وبغضّ النّظر عن النّقاش المعرفيّ حول مصطلح «الأدب» بصفته فئةً أو شكلًا أو نوعًا أو مقاربةً متميّزةً في الأدب العربيّ، يمكن المرءَ أن يلاحظ بشكلٍ عامّ أنّ العديد من الأعمال الأدبيّة يولَدُ من دافعٍ إلى الاختيار لدى الكاتب. ومع ذلك، فإنّ مفهوم «الأدب» يفسحُ المجال أيضًا لأعمالٍ ليست مبنيّةً على مبدأ اختيار «النّصوص الأفضل»، كما هو الحال في الرّسائل، والخُطب، والمقامات، وكتب نصيحة الملوك، والطّبقات، والشّروح الأدبيّة واللّغويّة، والسّرِقات، والأمالي، وأعمال أدبيّة لا تنطوي إطلاقًا على مبدأ الاختيار، كرسالة «التّربيع والتّدوير» للجاحظ. لذا، فإنّ «الأدب» ليس مرادِفًا للاختيار الأدبيّ، لا بل يتبيّنُ أنّ الاختيار الأدبيّ هو نوعٌ من أنواع «الأدب».

---

(٤) أنظر: W. Heinrichs, «Review of *Cambridge History of Arabic Literature: 'Abbasid Belles-Lettres*», *al-'Arabiyya* 26 (1993), p. 130.

(٥) أنظر: J. Sadan, «Hārūn al-Rashīd and the Brewer: Preliminary Remarks on the *Adab* of the Elite Versus *Ḥikāyāt*», pp. 2-3.

(٦) Samer Ali, *Arabic Literary Salons in the Islamic Middle Ages*, Notre Dame, Indiana: University of Notre Dame Press, 2010, p. 33.

(٧) م.ن.، ص ٣٥.

## ثانيًا: مقاربات حديثة لدراسة كتب الاختيار الأدبيّ

تُعتبر لَبِناتُ المختارات الأدبيّة من أخبار وأشعار وحِكَم وخُطب وأمثال وأقوال كيانًا محدودًا، وقد تبدو هذه الكتب لبعض النّاظرين فيها أعمالًا تنقصها الأصالةُ والابتكار. ولكنّ الدّراسات الحديثة قد كشفت أنّ أصالةَ عملٍ كتابيٍّ معيّن تكمن تحديدًا في اختيار النّصوص المستنسَخة وترتيبها(٨)، ممّا ينمّ بدوره عن اهتمامات المؤلِّف الشّخصيّة أو الجماعيّة(٩). وبالتالي، فإنّ السّياق الذي تُذكر فيه العبارة أو الخبر الأدبيّ يُعزِّزُ المعنى و/أو يغيّرُ وظيفتَه(١٠). والمادّة المتضمَّنة في كتب الاختيارات، وإن لم تكن من تأليف المصنِّف بدايةً، فإنّ مَفادَها الأوّل تثبيتُ رؤيةٍ معيّنة خاصّة به. ويمكن مقارنة الطّبيعة التّركيبيّة لهذه الأعمال بطبيعة اللّغة؛ فلئن كانت الكلمات المتنوِّعة تشكّلُ لَبِنات اللّغة الأساس، إلّا أنّها لا تُعبِّرُ عن الأفكار المعقَّدة بمفردها. فاللّغة، بصفتها وسيلةً للتّعبير عن الأفكار، ليست مجموعًا عشوائيًّا من الكلمات، بل هي ترتيب معيَّن لهذه الكلمات، وهكذا فإنّ كلَّ ترتيب جديدٍ يعبِّرُ عن معنًى جديد على الدّوام. وفي الإطار نفسه، إنّ إعادةَ ترتيب الأخبار أو العبارات الأدبيّة يدلّ على الرؤيةِ المفردة لجامِعها، وعلى الغاية التي دفعته إلى هذا التّرتيب(١١).

---

(٨) أنظر: Abdallah Cheikh-Moussa, «L'historien et la littérature arabe médiévale», pp. 152-188; Heidy Toelle and Katia Zakharia, «Pour une relecture des textes littéraires arabes: éléments de réflexion», *Arabica* 46 (1999), pp. 523-540; Stefan Leder, «Conventions of Fictional Narration in Learned Literature», in *Story-telling in the Framework of Non-fictional Arabic Literature*, ed. Stefan Leder, Wiesbaden: Harrassowitz, 1998, pp. 34-60; idem, «Authorship and Transmission in Unauthored Literature; the Akhbār of al-Haytham ibn 'adī», *Oriens* 31 (1988), pp. 61-81.

(٩) H. Kilpatrick, «A Genre in Classical Arabic Literature: the *Adab* Encyclopedia», p. 34ff.

(١٠) eadem, «Context and the Enhancement of the Meaning of *aḫbār* in The *Kitāb al-Aġānī*», *Arabica* 38 (1991), pp. 351-68.

(١١) قارن غابريال روزنباوم الأدب بـ«نوعٍ من العُدّة التي تحتوي على قطع ألعاب تُجمَع فتشكِّلُ بناءً، والقطع نفسها يمكن أن تُستعمَل لتؤلّفَ قوالبَ متنوّعة تُفكَّك بدورها فتُستعمَل ثانيةً=

وإلى جانب كون كتب الاختيار مصدرًا هامًّا من مصادر دراسة التّاريخ والمجتمع، يمكنُ اعتبارُها أعمالًا أدبيّة أصيلة، لكلّ منها بنيةٌ محدَّدة وبرنامجٌ خاصّ. وقد خُصِّص عددٌ من الدراسات للنّظر في بنية كتب الاختيار الأدبيّ وفي طريقة تنظيمها. فعلى سبيل المثال، سلّطت فدوى مالطي دوغلاس الضّوءَ على مسألة تنظيم موضوعات كتب الأدب وتوجّهاتها، مُركِّزةً على مُصنَّفات تختصُّ بالبُخل والتّطفيل(١٢). ويعالج يوسف سَدان بنيةَ كتب الاختيار وطريقة تنظيمها في ضوء كتاب **محاضرات الأدباء ومُحاورات الشُّعراء والبُلغاء** للرّاغِب الإصفهانيّ(١٣)، مشدّدًا على أنّ الرّاغب الإصفهانيّ قد لجأ إلى ثنائيّة المحاسِن - المساوئ الضّدّيّة كأداةٍ تنظيميّة مقصودة. وتصبّ دراسة غِيرت يان فان غلدِر عن ثنائيّة الجِدّ - الهَزْل في الهدف نفسه(١٤). أمّا هيلاري كيلباتريك فدعت إلى تسليط الضّوء على الأساليب والمناهج المعتمدة في تصنيف كتب الأدب. وقد درسَت كيلباتريك كتاب **الأغاني** لأبي الفرج الإصفهانيّ مركّزةً على منطقه الدّاخليّ وتماسُك مضمونه، كاشفةً عن الطّرق المعتمدة في تنظيم الأبواب ومداخلها وموادّها وعناصرها المكرَّرة، ومبيِّنةً حرفة الكاتب ومهارته في جمع الأخبار وترتيبها وتحليلها والتّعليق عليها(١٥).

---

=لبناء شكلٍ مختلف». أنظر:

G. Rosenbaum, «A Certain Laugh: Serious Humor and Creativity in the Adab of Ibn al-Ǧawzī», in *Israel Oriental Studies XIX: Compilation and Creation in Adab and Luġa in Memory of Nephtali Kinberg (1948-1997)*, ed. by Albert Arazi, Joseph Sadan, and David J. Wasserstein, Eisenbrauns, 1999, pp. 98-99.

(١٢) Fedwa Malti-Douglas, *Structures of Avarice: The Bukhalā' in Medieval Arabic Literature*, Leiden: E.J. Brill, 1985, pp. 5-16.

(١٣) Joseph Sadan, «An Admirable and Ridiculous Hero: Some Notes on the Bedouin in Medieval Arabic Belles-Lettres, on a Chapter of *Adab* by al-Rāghib al-Iṣfahānī, and on a Literary Model in which Admiration and Mockery Coexist», *Poetics Today* 10 (1989), pp. 471-492.

(١٤) أنظر: Geert Jan van Gelder, «Mixtures of Jest and Earnest in Classical Arabic Literature», I: *JAL* 23 (1992), pp. 83-108 and II: *JAL* 23 (1993), pp. 169-190.

(١٥) Hilary Kilpatrick, *Making the Great Book of Songs: Compilation and the Author's Craft in Abū-l-Faraj al-Iṣbahānī's Kitāb al-Aghānī*, London; New York: RoutledgeCurzon, 2003.

وقد حاول باحثون آخرون الكشفَ عن دوافع المصنِّفين عبرَ تتبّع بابٍ أو موضوعٍ معيّن بشكلٍ مقارَن في عدّة أعمالٍ أدبيّة. فقام فرانتز روزنتال من جهته بمقارنة الأبواب التي تُعنى بـ«العِلم» في عدد من كتب الاختيار[١٦]، كما قامت ناديا ماريا الشّيخ بمقارنة أخبارٍ تتعلّق بمسألة الزّواج واختيار الشّريك المناسب مُستندةً إلى مصنَّفَين: **عيون الأخبار** لابن قُتَيبة (ت. ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م)، و**العِقد الفريد** لابن عبد ربِّه (ت. ٣٢٨هـ/ ٩٤٠م)[١٧].

ومن المقاربات الأخرى لدراسة المصنّفات الأدبيّة مسألةُ تقييم مصادر المصنّفات تقييمًا نقديًّا[١٨]. وفي هذا المجال، بيّن شَوكت طراوة أنّ توافُرَ عددٍ كبيرٍ من الكتب في القرن الثالث الهجريّ/ التاسع الميلاديّ ببغداد ساهمَ في تسهيل إمكانيّة أن يُتِمَّ المرءُ تعليمه الأدبيّ من خلال هذه الكتب من دون الحاجة إلى إشراف أستاذ. وقد أدّى هذا التّطوُّر، بحسب طراوة، إلى نقصٍ تدريجيّ في الاعتماد على نقل المعرفة شفهيًّا وسمعيًّا[١٩]، وإلى اعتمادٍ متزايدٍ على الكتب والموادّ المكتوبة بأشكالٍ أخرى[٢٠]. كما نقّبَ والتِر

(١٦) Franz Rosenthal, *Knowledge Triumphant: The Concept of Knowledge in Medieval Islam*, Leiden: E.J. Brill, 1970, pp. 252-277.

(١٧) N. M. El Cheikh, «In Search for the Ideal Spouse», pp. 179-196.

(١٨) للاطّلاع على معالجة نظريّة لنقد المصادر مع تطبيقٍ على المصنّفات العربيّة، أنظر:
Sebastian Günther, «Assessing the Sources of Classical Arabic Compilations: The Issue of Categories and Methodologies», *British Journal of Middle Eastern Studies* 32 (2005), pp. 75-98.

(١٩) يُستخدَم المصطلح «سمعيّ» (Aural) بشكلٍ خاصّ في الدّراسات التّاريخيّة التّحليليّة التي تعنى بمصادر المصنّفات العربيّة من العصر الوسيط، إذ إنّه يجمع بين الموادّ المكتوبة (وعليها ترتكزُ غالبيّةُ المحاضرات ومجالس العلم وبرامج التّدريس)، وبين الأسلوب المعتمد في تدريس هذه الموادّ، من خلال قراءة نصٍّ مكتوب قراءةً جهريّة. وللمزيد من المعلومات والدّراسات عن الموضوع، أنظر:
Sebastian Günther, «Assessing the Sources of Classical Arabic Compilations», pp. 75-98.

(٢٠) Shawkat Toorawa, *Ibn Abī Ṭāhir Ṭayfur and Arabic Writerly Culture: A Ninth-Century Bookman in Baghdad*, London; New York: Routledge Curzon, 2005, p. 124; Gregor Schoeler, *The Genesis of Literature in Islam*, Edinburgh: Edinburgh University Press, pp. 122-125.

وِركمايستِر عن مصادر **العِقد الفريد** فبيّنَ أنّ غالبيّةَ الموادّ والأخبار التي أوردها ابن عبد ربّه كانت حصيلةَ المجالس والحلَقات العلميّة والأدبيّة، وليس من الكتب والمؤلَّفات المتداولة[٢١]. أمّا مانفرِد فلايشهَمِّر وفؤاد سيزكين فعالجا، كلٌّ على حِدة، المصادرَ الشّفهيّة والكتابيّة التي استندَ إليها أبو الفرج الإصفهانيّ (ت. ٣٥٦هـ/٩٦٧م) في كتاب **الأغاني**[٢٢]. واستنتج فلايشهَمِّر، من جهته، أنّ المؤلِّف قد حَصَّل معلوماته عن عددٍ محدودٍ من الرّواة، وأشارَ إلى الكتب الرئيسة التي اقتبس منها مادّته، في حين رأى فؤاد سِزكين أنّ الإصفهانيّ استخدمَ في معظم الأحيان كتبًا أدبيّة سابقة. وعلى نحوٍ مماثل، درس سيبستيان غُنتِر مصادر كتابٍ آخر من كتب أبي الفرج الإصفهانيّ، وهو **مقاتل الطّالبيّين**، واستنتجَ أنّ المؤلِّف استندَ إلى مجموعةٍ متنوِّعة من المصادر السّمعيّة والكتابيّة، مستعملًا الأسانيد الجماعيّة والفرديّة[٢٣]. أمّا دراستي الخاصّة عن مصادر أبي منصور الثّعالبيّ (ت. ٤٢٩هـ/١٠٣٩م) في كتابه **يتيمة الدّهر في محاسِن أهل العَصر** وفي تكملته **تتِمَّة اليتيمة** فقد كشفَتْ عن عودةٍ واضحة إلى النّقل الشّفهيّ والمسموع ابتداءً من النّصف الثّاني من القرن الرّابع/العاشِر، ودُعمت هاتان الوسيلتان باستخدام بعض الدّواوين، والكتب، ونصوصٍ مكتوبة أخرى كالرّقع والرّسائل. ولقد حاولتْ هذه الدّراسة أن تُثْبِتَ أنّ توزيعَ المصادر بين سمعيّ وشفهيّ ومكتوب ليس مُتّسِقًا في جميع أقسام **يتيمة الدّهر وتتمّة اليتيمة**[٢٤].

---

(٢١) Walter Werkmeister, *Quellenuntersuchungen zum Kitāb al-'iqd al-farīd des Andalusiers (240/860- 328/940)*, Berlin: Klaus Schwarz Verlag, 1983.

(٢٢) Manfred Fleischhammer, *Die Quellen des Kitāb al-Aġānī*, Wiesbaden: Harrassowitz, 2004; Fuat Sezgin, «*Maṣādir kitāb al-aghānī li-Abī l-Faraj al-Iṣfahānī*», in *Vortäge zur Geschichte der Arabisch-Islamischen Wissenschaften*, Frankfurt: Ma'had Tārīkh al-'Ulūm al-'Arabiyyah wa-l-Islāmiyyah fī Iṭār Jāmi'at Frankfurt, pp. 147-158.

(٢٣) Sebastian Günther, "«... nor have I learned it from any book of theirs» Abū l-Faraj al-Iṣfahānī: a Medieval Arabic Author at Work", in *Islamstudien ohne Ende: Festschrift Für Werner Ende Zum 65. Geburtstag*, eds. R. Brunner et al., [Heidelberg]: Deutsche Morgenländische Gesellschaft, 2000, pp. 139-154.

(٢٤) Bilal Orfali, «The Sources of al-Tha'ālibī in *Yatimat al-Dahr* and *Tatimmat al-Yatīma*», in *Middle Eastern Literatures* (2012), forthcoming.

واستكشف ستيفان ليدِر وهيلاري كيلباتريك في دراسةٍ أخرى بعض الأوجُه المشتركة في المصنّفات الأدبيّة[٢٥]، شكلًا ومضمونًا، مُركِّزَين على مؤلّفاتٍ تهتمّ بالنّثر بشكلٍ خاصّ. ونجحت دراستهما في تحديد أنواع فرعيّة ضمن مظلّة الأدب ليست بالضّرورة منفصلة. فعلى سبيل المثال، أشار الباحثان إلى مجموعةٍ من المصنّفات التي لا تتبعُ أيَّ نظام مثل **البَصائر والذَّخائر** لأبي حَيّان التّوحيديّ (ت. ٤١٤هـ/١٠٢٣م)، وكتب **الأمالي** التي تأخذ شكل محاضرات يلقيها الأستاذ ويدوِّنها طلّابه. وتعنى بعض المصنّفات الأخرى بمظاهرَ من سلوك الناس (البُخل والتّطفيل)، وسِيَر أعلام الأدباء والعلماء والأمراء، وأبحاث في قضايا أخلاقيّة أو جدليّة (**المحاسِن والمساوئ، والجِدّ والهزْل**)، ونقاشاتٍ في موضوعاتٍ لغويّة وأدبيّة (**المجالِس الأدبيّة**)، وهكذا دواليك[٢٦]. وكانت كيلباتريك، في بحثٍ سابق، قد حدّدت معالم «الموسوعة» فرعًا من فروع الأدب[٢٧]، وقدّمت إطارًا تحليليًّا يُتيحُ دراسةَ مناهج هذا النوع من الأعمال وأهدافِها وبُناها، علاوة على مقارنتها في ما بينها.

## ثالثًا: دوافع تأليفيّة عند مصنّفي كتب الاختيار الأدبيّ

لِمَ قامَ المولِّفون العرب في العصر ما قبل الحديث بجمع المختارات الأدبيّة، ولِمَ نالت هذه الأعمال رواجًا ملحوظًا؟ إقترح باحثٌ معاصر، إبراهيم نجّار، فكرةَ أنّ الباعث على التّصنيف الأدبيّ كان نتيجة توافر كمّ كبير من الموادّ الأدبيّة، الأمر الذي تطلّب اختصاره وانتقاء الأفضل منه، بُغية إيصال هذا الأدب إلى الأجيال اللّاحِقة[٢٨]. وبالفعل، صرّح الأديب الأندلسيّ ابن عبد ربّه، في مقدّمة كتابه **العقد الفريد**، أنّ أدباء الشعوب

(٢٥) إستعمل ليدِر وكيلباتريك المصطلح «Compilation».

(٢٦) S. Leder and H. Kilpatrick, «Classical Arabic Prose Literature: A Researchers' Sketch Map», *Journal of Arabic Literature* 23 (1992), pp. 16-18.

(٢٧) H. Kilpatrick, «A Genre in Classical Arabic Literature: the *Adab* Encyclopedia», pp. 34-42.

(٢٨) إبراهيم نجّار، **شعراء عبّاسيّون مَنسيّون**، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ١٩٩٧، ١: ١٧٠-١٧١.

وفلاسفتها قد انكبّوا على تصنيف أفضل ما خلّفه أسلافُهم، «فأكثروا في ذلك حتّى احتاجَ المختصَرُ منها إلى اختصار والمتخيَّر إلى اختيار».

وممّا لا شكّ فيه أنّ أهمّيّةَ الشّعر القديم مصدرًا للتّراث اللغويّ، وبالتّالي ضرورته لعلوم أخرى كالصّناعة المعجميّة، والنّحو والصّرف، وقراءة **القرآن** وتفسيره، قد تكون شكّلت حافزًا أساسيًّا لتصنيف كتب الاختيار الأدبيّ. فبدايةً عُنيت كتب الاختيار بالشّعر القديم وركّزت على «القصيدة» نوعًا أدبيًّا، وجُمِعت موادُّ هذه الكتب لأغراض تعليميّة بالدّرجة الأولى (مثل المعلّقات والمفضّليّات والأصمعيّات). وإزاء التّبدّلات الاجتماعيّة واللّغويّة السّريعة من جرّاء توسُّع الإمبراطوريّة العربيّة-الإسلاميّة، أدّت الأهمّيّة الأدبيّة واللّغويّة لهذه القصائد دورًا بارزًا في الحفاظ عليها عبر جمعها وتدوينها. ومع مرور الزّمن، أخذت كتب الاختيار الأدبيّ تتبع نظامًا أضيق من حيث التّنظيم والغرَض، ولكن نادرًا ما برّر المصنّف سبب اختيار المضمون. أمّا المختارات الأدبيّة التي تندرج تحت عنوان «الحَماسة» فكانت تُعتبَر في كثير من الأحيان منهاجًا شِعريًّا تدريبيًّا يجبُ على الشاعر أو الأديب إتقانُه قبل أن يبدأ بنظم الشّعر أو بتصنيف أعماله الأدبيّة الخاصّة. علاوةً على ذلك، لاحظَ أندراس حاموري أنّ اللّجوء إلى الشِّعر وسيلةً للتعبير عن الأدب والثّقافة قد ساعد على خَلق جمهورٍ لكتب الاختيار الأدبيّ[٢٩]. وهكذا استُخدم العديد من كتب الاختيار مراجعَ للشّيمات والمعاني الشّعريّة (الموتيفات) في موضوعات قد يحتاج المصنّف في الأدب أو الكاتب أو النّديم إلى أن يستشهد بها أو يقتبسها في كتبه ومصنّفاته أو رسائله الدّيوانيّة والإخوانيّة[٣٠]. واستشهد بعضُ

(٢٩) A. Hamori, «Anthologies», *EI*[3] (online).

(٣٠) يصرّح بعضُ المؤلّفين بهذا الهدف في مقدّماتهم. فعلى سبيل المثال يشدِّدُ أبو هلال العسكريّ (ت. بعد ٤٠٠هـ/ ١٠١٠م) في مقدّمة كتابه **ديوان المعاني** على أهمّيّة الاقتباس في كتابات الأدباء. أنظر مقدّمة أبي هلال العسكريّ، **ديوان المعاني**، تحقيق أحمد سليم غانم، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ٢٠٠٣، ص ١٠١. أنظر أيضًا مقدّمات أبي منصور الثّعالبيّ في **المنتحَل**، المطبعة التّجاريّة، الإسكندريّة، ١٩٠١؛ و**سَجع المنثور** (MS Yeni Cami 1188)، ومقدّمة أبي الفضل الميكاليّ في **المنتخَل**، تحقيق يحيى وهيب الجبّوريّ، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ٢٠٠٠؛ ومقدّمة كتاب **رَوح الرّوح** لمؤلّف مجهول، تحقيق إبراهيم صالح، هيئة أبو ظبي للثّقافة والتّراث، أبو ظبي، ٢٠٠٩.

المصنِّفين باقتباساتٍ ذات ميزة جماليّة لتوضيح فكرة أو أطروحةٍ محدَّدة. ومن الملاحظ أنّ النّثرَ الفنّيّ، إبّان النّصف الثّاني من القرن الثّالث/التّاسع، كان قد بدأ يحلّ تدريجيًّا محلّ الشّعر شكلًا من أشكال التّعبير الأدبيّ في مختلف الميادين والأغراض الأدبيّة. وبالتّالي، شغل النّثر الفنّيّ حيّزًا بارزًا في كتب الاختيار الأدبيّ إلى جانب الشّعر ابتداءً من هذه الفترة.

وممّا لا شكّ فيه أنّ عددًا لا بأس به من كتب الاختيار الأدبيّ لا يخلو من الأفكار والآراء النّقديّة؛ ففي الواقع، كان بعض هذه الكتب يُعدّ تمارينَ في النّقد التّطبيقيّ، كما يكشف العديدُ منها عن معرفة جامعيها وذوقهم الأدبيّ وحُسن عنايتهم بالمادّة التي يجمعونها. وهذا ما دفع ابنَ عبد ربّه في **العقد الفريد** إلى أن يعتبر «اختيار الكلام أصعب من تأليفه»، ويشدّد على أنّ «اختيارَ الرجُل وافِدُ عقلِه»[٣١]، وهو رأيٌ ردّده عدّةُ مؤلّفين في ما بعد بمعرض حديثهم عن الاختيار الأدبيّ[٣٢]. ولربّما كانت النّظرة المنحازة هذه إلى عمليّة الاختيار الأدبيّ، والتي ترجّح كفّة الاختيار في بعض الأحيان على عمليّة الكتابة «الأصيلة»، حافزًا للأدباء إلى جمع المختارات الأدبيّة، خاصّةً وأنّ محصّلة الاختيار تنمّ على ذوق الأديب الرّفيع ومهارته في نقل النّصوص الأدبيّة وقراءتها وفهمها وشرحها، وبالتّالي مقدرته الأدبيّة العامّة، وهو ما يجعله ثقةً وحجّةً في ميدان عمله[٣٣]. وبما أنّ عمليّة اختيار الأدب كانت

(٣١) إبن عبد ربّه، **العقد الفريد**، تحقيق مفيد محمّد قميحة، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١: ٤. ويُلحِقُ ابنُ عبد ربّه أقوالَه هذه ببيتٍ شعريّ يحملُ المعنى ذاتَه:

قد عرفناكَ باختيارِكَ إذ كا نَ دليلًا على اللّبيبِ اختيارُهْ

كما يستشهد بحكمة ينسبها إلى أفلاطون: «عُقول النّاس مُدوَّنة في أطراف أقلامِهم وظاهِرةٌ في حُسنِ اختيارِهم».

(٣٢) أنظر مثلًا الوشّاء، **المُوشّى**، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥، ص ١٠؛ إبن خلّكان، **وَفَيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان**، تحقيق إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨، ٦: ٧٨؛ ياقوت الحمويّ، **مُعجم الأدباء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**، تحقيق إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ١٩٩٣، ص ٢٧٦٣.

(٣٣) تكثر هذه الحالات في كتب الاختيار العائدة إلى العصر المملوكيّ. أنظر:
Thomas Bauer, «Literarische Anthologien der Mamlukenzeit», 94ff; idem, «Mamluk Literature: Misunderstandings and New Approaches», *Mamluk Studies Review 9* (2005), p. 122.

تُعَدُّ مَهمّةً صعبة تستحقُّ المكافأة، معنويًّا ومادّيًّا، فقد أدّت قصور الخلفاء والأمراء والوزراء دورًا بارزًا في حثّ الأدباء على تصنيف كتب الاختيار بشكلٍ متواصل. وهكذا، كلّما زاد الأديب من مصنّفاته، زادت الجوائز والخلَع والعطايا المغدَقة عليه(٣٤).

ولم تكن المختاراتُ دومًا نصوصًا ثانويّة تُجمع مادّتها من أعمالٍ سابقة، سواء من دواوين أو كتبٍ رائجة، ولكن، وكما هي الحال في الكتب التي يأخذ فيها المصنّف على عاتقه جمع أدب معاصريه وغربلته، مثل **يتيمة الدّهر** للثّعالبيّ وتتمّاتها والكتب التي نُسجت على منوالها حتّى مطلع عصر النّهضة، شكّلت كتب الاختيار وسيلةً لنَشر الأدب الأصيل والجيّد، ولا سيّما عند بعض الشّعراء أو الكتّاب غير المحترفين الذين لم يكونوا قد ألّفوا دواوين يتناقلها النّسّاخ بعد، ولكنّهم مع ذلك كانوا يسعون للوصول إلى البلاطات الرئيسة في عصرهم ونَيل اهتمام أمرائها وتقديرهم المادّيّ والمعنويّ. وكان الشّعراء والكتّاب الهُواة هؤلاء يرسلون إنتاجهم الأدبيّ إلى الثّعالبيّ مُدوَّنًا في رُقَع ورسائل، آمِلين أن يَضمَّها هذا الأخير إلى النّسخة الثانية والموسَّعة من **يتيمة الدّهر** وتكمِلتها **تتِمّة اليتيمة**. وفي حالاتٍ كهذه، يغدو مصنِّف كتاب الاختيار حارسًا عند عتبة مملكةِ الأدب الرّفيع(٣٥).

باختصار، يمكن تعريف «الاختيار الأدبيّ» بأنّه عملٌ أدبيٌّ يركّزُ على «لَبِناتٍ» يجمَعُها المصنِّفُ لغرضٍ معيّن بحسب معيارٍ خاصّ. أمّا العمل المصَنَّف فيضع هذه اللَّبِنات من أخبار وأشعار وحِكَم وخُطب وأمثال وأقوال في سياق أدبيّ ويُبرِزُ قيمَتها الذّاتيّة أو قيمتها الوظيفيّة في الخطاب

(٣٤) دفع هذا الأمر بعضَ المؤلّفين إلى إعادة كتابة العمل نفسه، وفي حالاتٍ قصوى، إلى إهداء العمل نفسه إلى أكثر من أمير، بعد تغيير المقدّمة. ولأمثلة من تراث أبي منصور الثّعالبيّ، أنظر:

Bilal Orfali, «The Art of the *Muqaddima* in the Works of Abū Manṣūr al-Tha'ālibī (d.429/1039)» in *The Weaving of Words: Approaches to Classical Arabic Prose,* ed. Lale Behzadi and Vahid Behmardi, Beirut Texte and Studien 112, 2009, pp. 188-190.

(٣٥) أنظر: Bilal Orfali, «The Sources of al-Tha'ālibī in *Yatīmat al-Dahr* and *Tatimmat al-Yatīma*».

الاجتماعيّ، بغَضّ النّظر عن أهمّيّتها التّاريخيّة أو السّياسيّة أو الاجتماعيّة. وكما لاحظت هيلاري كيلباتريك، قد تُقرأ الخُطبة السّياسيّة في مُصنَّفٍ أدبيّ بصفتها مثالًا على الفصاحة، وتكتسبُ الخُطبةُ ذاتُها أبعادًا أخرى على صعيد المعنى في الكتب التّاريخيّة أو السّياسيّة(٣٦). وبطبيعة الحال، تختلفُ أهدافُ الاختيار، وأنظمتُه، وبُناه، ومعاييره، من مُصنَّفٍ إلى آخر، إلّا أنّ الفكرة العامّة تقتضي جمعَ القِطع الأدبيّة «الأفضل»، أو العبارات الهامّة التي «تستحقّ أن تُدوَّن». وعمليّةُ جمعها هذه تضمنُ أنّها سوف تُقرأ، وتُتداول، وتُدرس، ويُستشهَد بها، وتُدرَّس، وتُنقَل إلى الأجيال القادمة، في محاولة الحفاظ على التّراث المعتمد (Canon)، وتوسيع حدوده، ومساءلته على الدّوام.

(٣٦) أنظر: H. Kilpatrick, «Anthologies, Medieval», in *Encyclopedia of Arabic Literature*, pp. 94-96.